الفصل العاشر

(قصة قصيرة)
العقـد الماسـي

العقـد المـاســي

قصة من كنوز الأدب الفرنسي...
الكاتب: جي دو موباسان

كانت واحدة من تلك الفتيات الجميلات الرشيقات اللاتي وُلِدْن في بيوت العمال البُسطاء. لا أُبهة ولا ثراء. كأنه حظ سيء! طُموحاتها في الحياة محدودة، وشُهرتها بين الناس مفقودة. وحيث لا أمل عندها في الارتباط برجل غني أو ذي منصب كبير، فقد استسلمت للزواج من موظف صغير بديوان وزارة التعليم العام.

إن مَظْهرها حقاً بسيط، ولا قُدرة لها على التزيُّن. وكان من الأفضل أن تجعل رقَّتها الطبيعية، ورشاقتها البَهية، ونفْسها الطيبة الطيِّعة، بديلاً عن أصالة العائلة، ورِفعة الحسَب والنَّسب، فتُشبه أحسن السيدات.

لكنها كانت متواصلة الأحزان. يغالبها الشعور دائماً بأنها تستحق أن تنال كل ألوان الترف والنعيم. ومع ذلك تعيش في بؤس، وتُلازم فقر المـكن، بجدرانه الكالحة، وأثاثه المتهالك، وكِسائه الكئيب. كل هذه الأشياء التي تثير سُخطها وغيظها، قد لا تَلْفت نظر سيدة أخرى في مستواها. لكنها الآن تحلم ـ مع كل المرارة والأسى ـ بالبيت الواسع، أو القصر الفـيح، وغُرف الاستقبال (الصالونات) الفخمة، تكسو جدرانها الأقمشة الحريرية ذات الزخارف الشرقية، والأثاث الفاخر ومعه التحف الثمينة النادرة، والقاعات الأنيقة المعطَّرة، التي يحلو فيها السَهر والسمَر مع الأصدقاء وزوجاتهن، أو تناول الشاي عند الغروب مع مشاهير الرجال والنساء في المجتمع، الذين يلفتون الأنظار في كل مكان.

كثيراً ما كانت تجلس شاردة الذهن، مستغرقة في أفكارها، أمام زوجها على

مائدة العشاء التي يغطيها مفرش قديم لم ينظَّف منذ عدة أيام. ولا تسمعه حين يقول لها في محبة ومرح وهو يرفع غطاء سلطانية (وعاء) الحساء:

ـ الله! يبدو أن المرَق لذيذ! سلِمت يداك. لا أعرف شيئاً أفضل من هذا...

إنها تفكر في موائد العشاء العامرة بألوان الطعام الشهية، والأدوات اللامعة الفضية، وبالسجاد الملون، والشمعدانات البرَّاقة، والأطباق المنقوشة المذهبة.

وأودات الزينة، والحُلِيّ، والملابس الهفهافة الغالية. إنها تحب ذلك كله وتتمنى امتلاكه. ولكن، كيف؟ ومتى؟ ومن أين؟ وهي تشعر أن جمالها يستحقه ويطلبه.

كانت لها، من أيام الدراسة المبكرة، صديقة ثرية من أسرة معروفة. انقطعت الآن عن زيارة تلك الصديقة. في الفترة الأخيرة، مع تزايد تفكيرها في أحلامها وخيالاتها عن الأبهة والثراء، كانت تعود من بيت صديقتها في كل مرة، وهي متألمة حزينة باكية، ليس حقداً ولا حسداً، وإنما ضجراً من أحوالها وقِلة ما في يدها، فتبكي أياماً بأكملها، وتنام وتصحو على الأسف، واليأس.

رجع زوجها ذات مساء، يغمره الزهْو، يحمل في يده مظروفاً عريضاً دفَعَه نحوها قائلاً:

ـ خُذي. هذا شيء لك.

فتحت الرسالة بحماس، فأخرجت منها بطاقة مطبوعة تحمل تلك الكلمات:

«يرجو وزير التعليم العام وقرينته، السيد لُوازِل وقرينته أن يمنحاهما شرف الحضور لقضاء أمسية في مقر الوزارة يوم الإثنين الثامن عشر من شهر يناير».

على عكس ما كان يرجو زوجها ويتوقع أن تبتهج وتفرح، ألقت البطاقة جانباً في استياء، وهي تزمجر:

ـ ماذا تريدني أن أفعل بهذه؟

ـ لكن يا عزيزتي، لقد ظننتُ أنك ستفرحين. أنت لا تخرجين مطلقاً، وهذه فرصة. حقاً، فرصة طيبة. لقد بذلْت أقصى جهدي للحصول عليها: فكل الناس يريدونها. والكل يسعى للفوز بها، فهي لا تُمنح لكثير من الموظفين. وهناك سوف تشاهدين عالم كبار الرسميين والمشهورين.

نظرت إليه في حيرة واضطراب. ثم تنهدت وهي تقول:

ـ وماذا تظن أن أضع على جسَدي لكي أذهب إلى هناك؟ أجاب متلعثماً بدون تفكير:

ـ الرداء الذي تذهبين به إلى المسرح. هل نسيتِ؟ إنه يبدو لي جيداً تماماً.. هذا في تقديري...

ثم ساد الصمت. أسكتته الدهشة، والارتباك، وهو يرى زوجته تبكي وتنتحب، ودموعها تنحدر كبيرة من طرْف العينين إلى طرْف الفم. فقال متحيراً:

ـ ماذا دهاكِ؟.. ماذا بك؟

بعد جهد شاق، ابتلعَتْ حزنها، وأجابت بصوت هادىء وهي تمسح خدَّيها المبلَّلين:

ـ لا شيء. الأمر فقط أنه ليس عندي أدوات للزينة، ولذلك لن أستطيع الذهاب إلى ذاك الحفل. إعط بطاقة الدعوة إلى أحد الزملاءِ ممَّن تستطيع زوجته أن تتجمل أفضل مني.

شعَر بالمرارة، فعاد يقول:

ـ سوف نرى يا «ماتيلْد». كم تظنين ثمن أدوات الزينة المناسبة والتي يمكن استعمالها في مناسبات أخرى؟

فكَّرت لبضع ثوان، وهي تجمع حساباتها واضعة في اعتبارها أيضاً أن تطلب مبلغاً لا يقابله بالصراخ والرفض ووصْفها بالتبذير. أجابت في شيء من التردد:

ـ لا أدري بالضبط. لكني أظن أنه بأربعمائة فرنك أستطيع الوصول إلى حل...

دُهش وتغير لون وجهه. فهو قد اقتصد هذا المبلغ بالتحديد لكي يشتري بندقية وينضمّ في الصيف القادم إلى فِرق الصيد ليـتمتع بهوايته. ورغم ذلك قال:

ـ فلْيكن. سأعطيك أربعمائة فرنك. لكن اجتهدي في الحصول على رداء جميل والاعتناء بمظهرك.

اقترب يوم الحفل. والسيدة «لوازِل» (في بعض الدول تأخذ الزوجة اسم

زوجها أو عائلته) تبدو حزينة، قلقة، متأففة، بالرغم من أن هندامها مقبول وزينتها جاهزة. وفي ليلة قال لها زوجها:

ـ ماذا بك؟ من الواضح أن أحوالك غريبة منذ ثلاثة أيام.

قالت:

ـ إن ما يضايقني هو أنه ليس عندي قطعة واحدة من الحُلي، ولا شيء من المجوهرات. لا أملك ما أتجمل به، فالبؤس كغيره من المنغصات لا يفارقني. لذلك رأيت أنه من الأفضل عدم الذهاب إلى تلك السهرة.

وهنا صاح زوجها:

ـ يا لكِ من ساذجة! اذهبي إلى صديقتك السيدة «فورِسْتييه» واطلبي منها أن تُعِيرك من حُليِّها. إن صلتك الوثيقة بها تسمح بذلك.

ردت بابتهاج:

ـ هذا صحيح. لم تراودني تلك الفكرة!

في اليوم التالي توجهت إلى بيت صديقتها، وحدثتها عن همومها وأحزانها، وما ترجوه منها. على الفور توجهت السيدة فروستييه نحو دولابها ذي المرآة الكبيرة، وأخرجت منه صندوق حُلى ومجوهرات كبير. قدمتْه إلى صديقتها ثم قالت وهي تفتحه برفق:

ـ اختاري ما تريدين يا عزيزتي!

تأملتْ أولاً مجموعة من الأساور، ثم عقداً من اللؤلؤ، ثم سلسلة من طراز ثمين قديم. أعجبها بريق الذهب والأحجار الكريمة، وحُسن الصنْعة الدقيقة المبهرة. وأمام المرآة، وقفت تجرِّب وضْع الحليّ وهي مترددة حائرة، أيها تأخذ وأيها تترك، ثم سألت صديقتها:

ـ هلاّ عندك غير هذه؟

ـ نعم عندي. تخيَّري على مَهَل. فلست أعرف ما يعجبك. في جانب من الصندوق، اكتشفت علبة أنيقة مغطاة بالساتان الأسود، بداخلها عقد من الماس.

فزادت ضربات قلبها، وأحست برغبة شديدة في استعارة هذا العقد. مدَّت يديها وهما ترتعشان نحوه. رفعتْه ثم وضعته لصيقاً حول عنقها، وظلت واقفة تتأمل نفسها والفرحة تغمرها، ولكنها تشك في أن صديقتها سوف تقْبل إعارتها هذا العقد الرائع. ترددت قليلاً ثم سألتها على استحياء وفي خوف من الرفض:

ـ هل توافقين على إعارتي هذا.. وهذا فقط ولا شيء غيره؟

ـ نعم.. حقاً... وبكل تأكيد!

فقفزت نحو عنق صديقتها، وطوقتْه بذراعيها وراحت تقبِّلها بشدة، ثم أسرعت بالخروج ومعها كنزها الثمين.

أقبل يوم الحفل. وفازت السيدة «لوازل» بما لم تكن تتوقعه. لقد كانت أجمل الحاضرات. رشيقة، سعيدة، ضاحكة، غارقة في الابتهاج والفرحة. لفتَت أنظار الحاضرين. سألوا عن اسمها، تحايلوا في تقديم أنفسهم إليها. كل التابعين لمكتب الوزير أرادوا الترحيب بها. استرعَتْ انتباه الوزير.

في داخلها كانت في غاية السرور والنشوة. لم تعد مبالية بشيء، وقد نالت إعجاب الجميع. كأنها تحلِّق فوق سحابة من السعادة والانتصار الباهر. وتسأل نفسها: هل تستحق حقاً كل هذا المدح، والاهتمام، والترحيب. والعبارات الرقيقة؟

غادَرَت المكان في نحو الرابعة صباحاً بعد أن أيقظت زوجها من إغفائه بأحد الصالونات الصغيرة الخالية ومعه ثلاثة من المدعوين الذين لا قُدرة لهم على السهر، بينما زوجاتهم يستمتعن في مرح ببرنامج الحفل.

كان البرد شديداً بالخارج. فأسرعا بالهرب حتى لا تلاحظهما عيون النساء الأخريات اللاتي يلبَسْن معاطف الفراء الثمينة. ثم استوقفها لوازل قائلاً:

ـ انتظري هناك سوف تُصابين بالبرد. سأُحضر لك عربة حنطور.

لم تتوقف ـ مشَت معه وهي ترتعش من البرد. لم يجدا أية عربة. أخذا يصيحان بكل سائق يَلْمحانه من بعيد. ثم اتجها نحو نهر السِّين في تَعب شديد ويأس وهما يرتعشان. عند الشاطىء وجدا عربة صغيرة قديمة تتسع فقط لراكبين،

من تلك العربات التي لا تظهر إلا في الليل، كأنها ـ لسوء منظرها ـ تخجل أن يراها أحد في النهار.

حَملتهما العربة إلى باب بيتهما بشارع «الشهداء». فصعدا في اكتئاب إلى المسكن. لقد انتهى كل شيء بالنسبة لها. أما هو، فقد انحصر تفكيره في أمر واحد: أن يكون بمكتبه بالوزارة في تمام العاشرة صباحاً.

أمام المرآة، وقفَتْ تتأمل نفسها مرة أخيرة وهي في كامل زينتها. وفجأة، أطلقت صرخة مفزعة: لم تجد العقد حول عنقها!

سألها زوجها وهو يخلع ملابسه:

ـ ماذا بك؟

استدارت نحوه وهي مذعورة:

ـ إنني.. إنني.. العقد.. إنني لا أجد عقد السيدة فورستييه!

هَبَّ واقفاً كالمجنون:

ـ ماذا؟.. كيف؟.. هذا مستحيل!

أسرعا يبحثان في طيَّات الثوب، في الحواشي والجيوب... في الأرض حولهما.. في كل مكان... لم يجدا شيئاً. فسألها:

ـ هل أنت متأكدة أنه كان معك عند مغادرة الحفل؟

ـ نعم، وقد تحسَّسته ونحن في ردْهة الوزارة.

ـ لكن.. لو أنه سقط في الطريق، لكنا سمعنا صوته. لا بد أن يكون في العربة.

ـ هذا محتمل.. هل أخذت رقمها؟

ـ لا.

ـ وأنتِ.. هل تذكرين الرقم؟

ـ لا...

جلسا أرضاً يفكران في حزن وصمت. وأخيراً نهض «لوازل» يعيد ارتداء ملابسه. قال:

ـ أنا ذاهب لأبحث في كل الطرق والممرات التي مشينا فيها على الأقدام لعلّي أجده.

ثم خرج. وبقيت هي بفستان السهرة، عاجزة عن النوم، مستلقية فوق مقعد، لا تكاد تشعر ببرد الغرفة الخالية من نيران التدفئة، شاردة الذهن، مختلطة التفكير.

رجع زوجها في نحو السابعة صباحاً. لم يجد شيئاً. استراح قليلاً، ثم توجَّه إلى مقر الشرطة، وإلى دُور الصحف، وإلى شركات العربات الصغيرة، واعداً بمكافأة لمن يَعْثر على العقد، متابعاً السير وراء كل أمل ولو ضعيف.

ظلت هي تنتظره طوال النهار، وهي على حالتها من الذهول والذُّعر، لا تدري ماذا تفعل مع هذه الكارثة المفزعة. عاد «لوازل» في المساء، وقد تغيرت ملامحه، واصفر لونه، فهو لم يعثر على شيء. قال بصوت حزين متقطع:

ـ يجب أن تكتبي إلى صديقتك بأنك كسَرْت قُفل العقد، وأنك أرسلت في إصلاحه. فهذا يعطينا وقتاً لتدبير الأمر.. وكتبتْ ما أملاه عليها.

مضى أسبوع، فقَدا فيه الأمل، وهو أسبوع ترك على وجه الزوج المسكين آثار خمس سنوات على الأقل من تقدُّم السن.

قال مُفصحاً عن ما يدور في فكره:

ـ لا بد من تدبير بديل لهذا العقد.

في صباح اليوم التالي، أخذا العُلبة الفارغة التي كان بها العقد، وتوجها معاً إلى المتجر المذكور عنوانه داخلها. قال صاحب المتجر:

ـ لست أنا يا سيدتي الذي باع هذا العقد. إنني أصنع فقط العُلب الفاخرة التي توضع فيها الحُلى والمجوهرات، ومتاجر بيعها كثيرة.

قضيا اليوم بأكمله يتنقلان من متجر للمجوهرات إلى متجر، يبحثان عن عقد مماثل للذي ضاع، ويستجمعان ذاكرتهما، وقد أرهقهما الهم والحزن. وأخيراً في متجر بشارع «القصر الملكي» عثَرَا على سبحة من الماس تشبه تماماً العقد الماسي المفقود. والثمن: أربعون ألف فرنك! بعد مساومة طويلة، رضي صاحب المتجر

أن يبيعها لهما بستة وثلاثين ألفاً. والتَمَسا من الرجل أن يحجزها فلا يبيعها قبل ثلاثة أيام حتى يتمكنا من تدبير هذا المبلغ الفادح.

كان لوازل على وشك استلام مبلغ ثمانية عشر ألف فرنك تركها له والده قبل وفاته. فكان عليه أن يَقْترض بقية المبلغ. طلَب، ورجا، وألحَّ، واقترض: ألف فرنك من هذا، وخمسمائة من ذاك، مائة فرنك من هنا، وستين من هناك، وكتب شيكات بشروط قاسية، واستدان من مرابين بفوائد باهظة. تردَّد على كل الأماكن التي يمكن أن يقْترض منها، وتعهد بالسداد حتى نهاية العمر، مخاطراً بتوقيعه وهو غير واثق من قُدرته على الوفاء بشرف الوعْد. ورغم الإحساس المرعِب بمرارة المستقبل، وبالبؤس الذي سوف يَطْحنه، وبتوقعات الفقر والضَّعف والهوان وآلام النفس، ذهب لإحضار العِقد الجديد، ويضع أمام التاجر ستة وثلاثين ألف فرنك. نقداً وعدًّا.

عندما حَمَلت السيدة لوازل عُلبة العِقد إلى السيدة فروستييه، استقبلتْها بفتور وقالت:

ـ ليتكِ رددْته إليّ قبل الآن، فقد كنت في حاجة إليه! لم تفتح العُلبة. وهذا ما كانت ترجوه المسكينة لوازل، فقد كانت تخشى أن تلاحظ أ أو نقصاً فتحسبها سارقة!

عَرَفت السيدة لوازل معيشة المحتاجين القاسية البشعة. فاحتملتْ نصيبها منذ البداية بشجاعة جديدة عليها. إذ لا مفر من سداد هذا الدين المُهلك. استغْنَت عن الخادمة. وكان لا بد من تغيير المسكن. فانتهى بها الأمر إلى حجرة ضيقة بسطح بيت قديم.

تعوَّدت على أعمال البيت الشاقة، وغسل الملابس المستهلكة باليد، ونزلت إلى الشارع في كل صباح لتُفْرغ القمامة ثم تصعد حاملة الماء. تلتقط أنفاسها بالوقوف قليلاً عند كل طابق. وبملابسها الكالحة البالية تنتقل بين المتاجر، وبيدها سلَّة حقيرة مُخجِلة تجمع فيها أرخص الأشياء وأسوأها، ولا تَمَل من المساومة مع كل تاجر من أجل توفير قرش أو أقل، فتسمع من الباعة توبيخاً جارحاً وتهكماً لا

يليق. ولا بد من تسديد الاستحقاقات كل شهر، وتجديد أخرى، وانتزاع فسحة من الوقت.

التحق الزوج بعمل إضافي في المساء، لمراجعة الحسابات عند أحد التجار. وأحياناً في الليل، يسهر بالبيت إلى قرب الفجر ينسخ مذكرات للتلاميذ مقابل بضعة فرنكات.

على هذا النحو المؤلم، سارت الحياة لعشر سنوات! وفي نهاية هذه السنوات العشر. كانا قد فرغا تماماً من سداد كل الديون، وفوائدها المتراكمة.

الآن أصبحت السيدة «لوازل» امرأة عجوزاً قوية قاسية شرسة، منفوشة الشعر، حمراء اليدين، مهلهلة الثياب، عالية الصوت، تسكب كثيراً من المياه حين تمسح أرضية الحجرة، فتسيل وتتسرب من الشقوق إلى السكان من تحتها، فيعلو الصَّخب ويشتد العراك!

أحياناً، وعندما يكون زوجها مشغولاً بالعمل في الخارج، تجلس على مقربة من النافذة، شاردة الذهن مع تلك الليلة الغابرة، مع أطياف ذلك الحفل الساهر، عندما كانت في قمة جمالها وجاذبيتها.. وتفكر: ماذا يا تُرى كان يحدث لو لم يَضِع منها ذلك العِقد؟ مَن يدري؟ مَن يَعرف؟ ما أغرب الحياة، وما أعجب تقلباتها ومفاجآتها! كم من شيء بسيط يحفَظُك أو يضيِّعُك!

في يوم من أيام العطلة الأسبوعية، وبينما كانت تتجول شارع «الشانزإلزيه» ـ أشهر وأفخم شوارع باريس ـ تروِّح عن نفسها من مشقة العمل طوال الأسبوع، لمحَتْ فجأة سيدة تصحب طفلاً. إنها السيدة فروستييه، بنفس حيويتها وجمالها ورشاقتها.

ثارت مشاعر السيدة لوازل وتحيرت: هل تذهب إليها وتكلمها؟ نعم. بالتأكيد. فالآن، وقد دفعت الثمن، فلسوف تخبرها بكل شي. لمَ لا؟

اقتربت منها قائلة:

ـ صباح الخير يا «جين»..

لم ترد صديقتها القديمة التحية، لأنها دُهشت واستنكرت أن تخاطبها هذه

المرأة السوقية باسمها الشخصي كما يفعل الأصدقاء. فلما أعادت لوازل التحية، قالت الأخرى:

ـ لكن.. أيتها السيدة.. أنا أعرف... لا بد أنك مخطئة.

ـ أبداً.. أنا ماتيلد لوازل..

ـ آه.. ماتيلد.. صديقتي المسكينة.. كم تغيَّرت كثيراً!

ـ حقاً.. لقد مرت بي أيام صعبة منذ أن اختفيت عنك. حدثت مآسٍ كثيرة.. وكلها بسببك!

ـ عجباً.. أخبريني.. كيف ذلك؟

ـ أتذكرين جيداً العقد الماسي الذي أخذتُه منك لكي أذهب إلى حفل الوزارة؟

ـ نعم. أذكر جيداً. وماذا حدث؟

ـ حدث أنني أضعْته.

ـ كيف هذا، وقد رددْته إليَّ؟

ـ رددْت إليك عقداً آخر من ألماس يشبهه تماماً، وها قد مضت عشر سنوات ونحن ندفع الثمن.. وأخيراً، انتهى الأمر.. وبدأنا نشعر بارتياح كبير...

ـ تقولين إنك اشتريت عقداً من الماس بدلاً منه؟

ـ نعم. ألم تلاحظي ذلك؟ هذا حسن، فقد كان يشبهه تماماً..

ثم ابتسمت في سذاجة بدافع الفرحة والفخر. إلا أن السيدة فروستييه غمرتها الدهشة وكادت تسقط على الأرض من هذه المفاجأة. أمسكت بيد لوازل وهي تنتزع الكلمات:

ـ ياه!.. يا مسكينة يا ماتيلد.. لكن العقد الذي أخذتِه منِّي كان مزيفاً.. ليس من الماس الحقيقي... إن ثمنه لا يزيد أبداً عن خمسمائة فرنك!!